

أثر أبي دلف في ظهور المقامات البديعية

سعيده بيرجندي^{١*}، جلال مرامي^٢

١. دكتوراه في اللغة العربية وآدابها

٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة طباطبائي

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/٦/١٣؛ تاريخ القبول: ٢٠١٦/٩/١٧)

الملخص

إن المقامة كلام منثور مسجع ومكلف يشمل حكايات قصيرة مقرونة بالنكت الأدبية أو اللغوية. وتعتبر كإحدى الفنون الأدبية الهامة والمؤثرة في الأدب العربي ويتفق جميع الأدباء على أن بديع الزمان مبدع هذا الفن. وهناك خلافات كثيرة حول كيفية ظهور المقامات والأسباب المؤثرة فيها وقد ذكروا عدة أسباب لظهور هذا الفن منذ القديم، منها تعليم اللغة والأدب للناشئة، والنقد الاجتماعي. فبعضهم يرون أن إحدى الأسباب المؤثرة في ظهور المقامات هي شيوع الكدية والاستجداء، فأراد بديع الزمان أن ينتقد ظروف دهره فأبدع المقامات وعبر عنها عن طريق قصصه. ونحن في هذا المقال نريد أن نتطرق إلى دور أبي دلف في ظهور المقامات البديعية ومدى تشابهه ببطلها. كما نعرف أن أبا دلف كان من فرقة بني ساسان وهم الذين يعرفون بالاستجداء والكدية، ولكنهم كانوا أهل الأدب ومن الظرفاء ولهم حيلهم للكدية. فبطل مقاماته شخص أديب عالم ظريف ولكنه مخادع محتال يجوب في الأرض ويكتسب بأنواع حيله وأدبه. وهناك أديب شاعر باسم أبي دلف الذي له الخصائص التي نجدها في أبي الفتح، بطل المقامات البديعية، مثل كونهما أديبا وعالما وسياحا، واستجدائهما بحيلهم وبأدبهم. وكان بينه وبين بديع الزمان مصادقة فعرفه البديع وجعله نموذجا حيا لخلق بطله فيعتبر كإحدى الأسباب المؤثرة عليه لإبداع هذا الفن. ويمكن لنا أن نقول أن أبا دلف أثر في ظهور المقامات.

الكلمات الرئيسية

أبو دلف، بديع الزمان الهمذاني، بني ساسان، الكدية، المقامات، النثر العربي.

مقدمة

قضية ظهور المقامات كانت من القضايا الهامة التي تشغل بال الأدباء، فذكرت منذ القديم الآراء الكثيرة حولها. ونحن نسعى في هذه المقالة أن ندرس ونستقصي موضوعاً لم يدرس بعد وهو الكشف عن أثر أبي دلف في ظهور المقامات البديعية. فعندما كنا نطالع ترجمة شاعر في العصر العباسي التقينا باسم "أبي دلف" ولفت انتباهنا وجوه التشابه الكثيرة الموجودة بينه وبين أبي الفتح الاسكندري، بطل المقامات البديعية. فصممنا أن ندرس أثر أبي دلف ودوره في إبداع المقامات وظهورها وأثره في خلق بطلها. فبطل المقامات في الأغلب يظهر كأديب متجول ويأخذ من الناس مالا بكلامه الفني وبتلاعبه بالألفاظ الفخمة وهذا التصوير تذكرنا بحالة بعض الأدباء آنذاك الذين كانوا يظهرون كل يوم على حالة مختلفة عن سائر حالاتهم. (ضيف، ١٩٥٦م: ١٧٥) فكان أحدهم أبا دلف الذي نجد فيه الكثير من التشابه ببطل مقامات بديع الزمان.

أهداف التحقيق

فمن أهداف هذه المقالة الكشف عن نموذج حقيقي لبديع الزمان في خلق بطل مقاماته فهي تدرس أثر شاعر باسم "أبي دلف" في ظهور المقامات البديعية. ثم قمنا بدراسة وجوه التشابه والاختلاف بينه وبين بطل مقامات البديع.

أسئلة التحقيق

ويريد هذا البحث الإجابة عن بعض أسئلة منها: من هو أبو دلف وما هي علاقته بالمقامات وببديع الزمان؟ وكيف أثر أبو دلف في ظهور المقامات البديعية وما هو دوره في ظهور المقامات؟ وما هي وجوه التشابه والاختلاف بين أبي دلف وبين بطل مقامات البديع؟ وبعد الحصول على الإجابات الصحيحة لهذه الأسئلة يمكننا دراسة دور أبي دلف في ظهور المقامات وأثره في خلقها.

منهج التحقيق

والمنهج الذي يتبعه هذا البحث هو المنهج الوصفي- التحليلي لدراسة أثر أبي دلف في ظهور المقامات البديعية.

خلفية البحث

أما بالنسبة إلى خلفية البحث فلا يفوتنا الذكر بأننا لا نكاد نجد بحثاً شاملاً وافياً لهذا الموضوع، وهذا ما تكلفت هذا البحث بدراسته، وإن كان هناك بعض الدراسات التي لا تخلو الإشارة إليها من جدوى:

- كتاب "نشأت المقامة في الأدب العربي"، لمؤلفه حسن عباس، طبع في دار المعارف. يدرس هذا الكتاب المقامة لغة واصطلاحاً ثم يدرس أحاديث ابن دريد وبديع الزمان وغيرهما من الذين كتبوا المقامات وما شابهها.
- كتاب "فن المقامة بين الإصالة العربية وتطور القصصي"، لعباس مصطفى الصالحي، يدرس هذا الكتاب المقامة من الناحية القصصية فيرى بعض أصول القصة العربية في المقامات.
- كتاب "المقامات والتلقي"، لنادر كاظم، يدرس هذا الكتاب المقامة باستخدام مناهج النقد الأدبي الحديث.

ولم تدرس الكتب المذكورة بطل المقامة ولم تقل أي شئ عن البطل وعلاقته بأبي دلف. فنحن في هذه المقالة في البداية نلفت بشكل موجز إلى حياة أبي دلف حتى نتمكن لنا الكشف والتبيين للأسباب المؤثرة من حياته التي تساعدنا في هذا الموضوع وفي النهاية سندرس أثر أبي دلف في ظهور فن المقامة.

حياة أبي دلف

إنه مسعر بن مهلهل^١ سياح، وشاعر، وعالم عربي لانعلم من مولده وتاريخ ولادته ووفاته شيئاً. ولكننا نعلم انه كان يعيش في القرن العاشر الميلادي يطابق القرن الرابع الهجري في الشرقي من البلاد الإسلامي وكان يعاصر بديع الزمان والصاحب بن عباد. وإنه كان يدعى ينبوعياً أو خزرجياً. وتشير هاتان الصفتان إلى أنه قد كان من سكان ميناء ينبوع الواقعة في الشاطئ الشرقي لقلزم وكذلك كان ينسب إلى قبيلة الخزرج. (أبو دلف، دون تا: ٢٢) وهو كان شاعراً وأديباً ظريفاً فجعلته ظروف الدهر يطوف البلاد وينتقل من بلد إلى آخر للاكتساب. فدخل كشاعر مادح بلالط "نصر بن أحمد الساماني" حاكم بخارى. وعرفه ابن النديم في

١. يجدر بنا الإشارة إلى أنه هناك شخص آخر في الكتب الأدبية باسم أبي دلف. وهو أبو دلف قاسم بن عيسى العجلي (٨٤٠-٨٦٤) وكان من بني العجلة عاش في عهد المأمون وكان عقيداً مؤهلاً، وشاعراً، وأديباً ماهراً، وكذلك كان من محبي الموسيقى. فبعض الشعراء آنذاك مدح بأسه وشجاعته في أشعارهم. ونسبت إليه بعض الكتب كـ"سياسة الملوك" و"البزاة والصيد". (رضا، ١٣٧٢ش: ج ٤٥٨/٥)

فهرسته باسم الجواله^١. (ابن النديم، دون تا: ٤١٠) وكذلك للثعالبي رأي يشابه رأي ابن النديم وهو عرفه باسم مسافر الأسفار الصعبة^٢. (الثعالبي، ١٩٧٤: ج ٣/ ٢٥٢) وكذلك ذكريا القزويني قال أنه كان «سياحا مشهورا سافر البلاد الكثيرة وكان يعلم عجائبها» (القزويني، ١٩٨٧م: ٩٧) وكان أبو دلف صاحب ذوق سليم وحساس وله كلام مؤثر وممتين. وكان يمضي عمره في الأسفار الصعبة - كما لقبه ابن نديم بهذا اللقب - وكذلك في خدمة العلم والأدب. وكان يكسب لقمة عيشه عبر الإستجداء عند أبواب المساجد. وقد وصلت إلينا أشعاره عن أسفاره ولكنها متناثرة بين الكتب الأدبية. (الثعالبي، ١٩٧٤: ج ٣/ ٢٥٢)

ألا إنِّي حلبتُ الدهمَ رَمَن شَطْرٍ إلى شَطْرٍ
وجُبْتُ الأرضَ حتَّى صِرَ تَ فِى التَّطَوَّافِ كَالخِضْرِ

وأشعاره في الأغلب كانت قصيرة. وهي تهمنا من عدة جوانب منها: الجانب الفني، والنفسي، والاجتماعي لأنها تعطينا معلومات كثيرة عن الظروف الاجتماعية لذلك العصر إضافة إلى معلومات من الشاعر نفسه.

فأسفاره الطويلة وسياحته تسبب إشرافه على الظروف الاجتماعية للبلاد الإسلامية في عصره وهذا الأمر يمنحه الخصائص الخاصة. كان أبو دلف من الأقرباء والأصدقاء للصاحب بن عباد^٣ ويعتبر من أصحابه الخاصين وكان يأخذ من صاحب كلفة أسفاره وكان أبو دلف معلمه الخاص وكان يحفظ كتبه له. وكان صاحب بكرمه ويمنحه مكانة عالية. فقدم أبو دلف قصيدته "الرائية" التي عارض فيها قصيدة "أحنف العكبري"^٤ وهي قصيدة أكثر طولاً بالنسبة لقصائده الأخرى، إلى صاحب بن عباد. فقبلها صاحب وفرح منه وحفظها وأعطى لشاعره صلات ونقودا. (الثعالبي، ١٩٧٤: ج ٣/ ٢٥٢-٢٥٣)

١. قال لي أبو دلف الينبوعي وكان جواله.

٢. صاحب عجائب البلدان، وإنه كان سياحا دار البلاد وأخبر بعجائبها.

٣. هو أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن بن العباس بن عباد بن أحمد بن إدريس الطالقاني. ولقب بالصاحب، وأخذ الأدب من أحمد بن الفارسي اللغوي المشهور ثم من ابن العميد. وكان وزيرا لآل بويه وكان يحب العلم والأدب.

٤. كان من الشعراء الذين اختلفوا إلى بلاط صاحب وكان يعرف ويصاحب الهمذاني وأبا دلف. وصف الثعالبي أنه كان أطف الشعراء المستجدين (الثعالبي، ١٩٧٤: ج ٣/ ١٢٢-١٢٤) ولكن من المستبعد أن تأثر بديع الزمان منه وإن تأثر منه. كان هذا التأثير قيل جدا لأن شخصية أبي الفتح في أبعادها المختلفة تشبه كثيرا بشخصية أبي دلف ولا تشبه بشخصية أحنف فأحدى الصفات البارزة لأبي الفتح هي السياحة ونرى هذه الصفة في أبي دلف ولا نراها في الأحنف.

والنقطة الهامة في حياة أبي دلف، هي علاقته بـ"بني ساسان"^١. فانهم كانوا من العيارين والصعاليك ولديهم الحيل والنوادر الخاصة بهم. وكانت الكدية والصعلكة من أصول خصائصهم. فعلاقة أبي دلف بهذا الفريق أثرت كثيرا في آثاره وشخصيته حيث أنه يظهر حبه الكثير إليهم في كافة آثاره وأشعاره. فهو مدح في قصيدته الرائية بني ساسان وطريقتهم. (أبو دلف، دون تا: ٨-١٠) وكذلك له قصيدة باسم "الساسانية" التي وصف فيها ظروف حياة بني ساسان وأوضاعها. وأبو دلف في هذه القصيدة يدعي نفسه أحد أعضاء هذا الفريق:

وشاهدتُ أعاجيباً	وألواناً من السدر
فطابت بالنوى نفسي	على الإمساك والفسر
على أني من القوم	بهايلٍ بني الفرس
بني ساسان والحامي	حُمى في سالف السدر

(الثعالبي، ١٩٧٤: ج ٣/٣٥٣)

وبما أنه عدّ نفسه كأحد أعضاء بني ساسان فكذلك نحن نعدّه أحدا منهم. فعند دراسة المصادر التاريخية والأدبية نجد أنه لهذا الفريق لغة رمزية خاصة لهم وأتقن أبو دلف هذه اللغة وهو قد جاء في القصيدة الساسانية ببعض الكلمات من هذه اللغة الرمزية وقام بشرحها بعض الأحيان. وقد أثر هذه اللغة على الشاعر بن عباد. وروي أنه علم هذه اللغة للصاحب. (أبو دلف، دون تا: ١٢-١٣) وكان أبو دلف من الشعراء الذين كانوا ينتقدون الأوضاع والمفاسد الاجتماعية الموجودة في مجتمعهم في القرن الرابع للهجرة. فإنه أصبح ناقدا اجتماعيا بسبب كثرة أسفاره وكثرة متاعب واجهها. فنراه أيد نفاق فرقته، بني ساسان، وتلونهم خاصة في الأمور الدينية ومدحهم بهذا السبب:

ومننا النائح المبكي	ومننا المنشد المطري
ومن ضرب في حطب	على أبي بكر

(الثعالبي، ١٩٧٤: ج ٣/٣٦٢)

١. كان بني ساسان فقراء جدا والصعلكة، وقص الروايات، والاستجداء، واستخدام الحيل، وإنشاد المراثي كانت من خصائصهم البارزة. هم كانوا مشغولون بتجارة العطور، والطلاسم، وأنواع الأدوية والعقاقير وكانوا يدعون أنفسهم المحررين من الأسر في شرقي الروم أو المناطق الأخرى. وعلى حسب الحال دعوا أنفسهم مرة يهوديين، أو مسيحيين، أو أهل السنة أو الشيعة، أو أعمى، والأصم. (رضا، ١٣٧٢: ج ٥/٤٦٠)

٢. كان في ذلك العصر فريق يدخلون الأسواق وينقسمون قسمين. قسم منهم يقولون من فضائل أبي بكر وقسم آخر يقولون من فضائل علي عليه السلام وبهذه الطريقة يكتسبون ثم يوزعون ما جمعوا بينهم. (الثعالبي، ١٩٧٤: ج ٣/٣٦٢)

كما نرى في البيتين المذكورتين إنه يصف بني ساسان وتلونهم وحالاتهم المختلفة التي تميل كل لحظة إلى مذهب ما أو إلى فرقة ما لمصالحهم. ثم نحن في بعض الأبيات نراه متعذرا عما يقول وأعلن أنه من الشيعة ومن محبي أهل البيت عليهم السلام:

ومأ عيش الفتى إلا	كحال المد والجزر
فبعض منه للخير	وبعض منه للشّر
فإن كنت على الغر	بنة مثلي فأسمّن ذكري
أما لي أسوة في غر	بتي بالسّادة الطهر
هم آل الحوامي	هم هم الموقنون بالنذر
هم آل رسول اللّٰه	ه أهل الفضل والفخر

(الثعالبي، ١٩٧٤: ج ٣/٣٧٢)

هو يقول حال المرء كحال الجزر والمد أي ظروف الدهر تارة للمرء وتارة أخرى عليه وبالتالي حاله بين الخير والشر. فهو بهذه المقدمة يريد الاعتذار بشكل ما، ثم يعتبر أهل البيت كأسوته في الغربة وتحمل مصائبها، وينسب إليهم الفخر، والفضل، والوفاء بالعهد والنذر.

المقامة ومبدعها

المقامة فن أدبي ظهرت في القرن الرابع للهجرة، وهي رواية يغلب عليها السجع والتنميق في قالب قصصي وأساسها هو حوار درامي قد أبدعها أبو الفضل أحمد بن حسين بن يحيى بن سعيد الهمداني الملقب بـ "بديع الزمان" (٣٥٨-٣٩٨). ولقب ببديع الزمان لإبداعه هذا الفن أي لأنه أبدع شيئاً جديداً في زمانه. فهو من كبار الكتاب والفضلاء في ذلك العصر. إنه ولد في همدان في سنة ٣٥٨ هـ وترك مولده وهو ابن اثنين وعشرين وسافر إلى الري وقد لحق فيها إلى الصاحب بن عباد وصار من أقربائه. إنه كان أديبا شهيرا وبارعا في عصره فمات مسموماً في ٣٩٨ هـ. (الحموي، ١٩٨٨ م: ج ٢/١٦١-١٧١)

وقيل إن بديع الزمان أنشأ هذا الفن لغاية تعليمية فقط لأنه كان يشتغل بتدريس اللغة والأدب فأنشأ المقامات ليدرس تلامذته اللغة والأدب ويديهم على أحسن الأسلوب في الكتابة فيجعل المقامات ميدان لعرض التراكيب الغريبة والألفاظ الوعرة (الدقاق، ٢٠٠٤: ٣٥١) ولكن هناك الأسباب المختلفة والمتعددة غير الغاية التعليمية التي أثرت في بديع الزمان لإبداع مقاماته، منها:

١. القصة: كان بديع الزمان متأثراً من القصص العربية - وأحياناً غير العربية - وطريقة العرب الخاصة في قص الحكاية وهو موضوع يلاحظ في المقامات بالوضوح. كانت الروايات العربية حول فتوحاتهم في الحروب وعصبياتهم القبلية وكذلك كانت حول المصادقات والخصومات العربية. وأفرد الهمذاني الكلمات والعبارات في القالب القصصي حتى يسهل على الطلاب تعليمها (ميرصادقي، ١٣٧٦: ٢٤٢-٢٤٣) وحتى يسهل عليه أن يظهر نقده الاجتماعي دون الإفصاح والوضوح.
٢. القطعات والروايات الأدبية: كان بديع الزمان من حيث استخدام الألفاظ النادرة والتراكيب الغريبة متأثراً من القطعات والروايات الأدبية من مثل "أحاديث" ابن دريد (٢٢١-٢٢٣هـ). (غنيمي هلال، ١٩٩٩: ٢٢٤) قال بعض الأدباء إن أعمال ابن دريد أو أحاديثه «تحمل معنى المقامة وجاز لنا أن نقول إن أحاديثه إن لم تكن المقامات بالمعنى الإصطلاحي الذي ظهر عند البديع فإنها لاتقع بعيداً عنها» (عباس، دون تا: ٤٨).
٣. الأدباء والشعراء الذين عاصروه: إن البديع كان متأثراً في إبداعه ببعض الشعراء في زمانه منهم أحنف وأبو دلف. وهو أخذ مضمون بعض مقاماته من المضامين والمفاهيم التي استخدمها بعض شعراء معاصريه. فمثلاً مضمون المقامة الرصافية للبديع قريب من مضمون قصيدتين لأحنف وأبي دلف حتى قال أحد الدارسين «أنه من قرأ المقامة الرصافية للبديع الزمان، قد أحس أنه جعل قصيدة أحنف وقصيدة أبي دلف منثوراً» (ابراهيم حريري، دون تا: ٦٣).
٤. الجاحظ: قد أثر الجاحظ في بديع الزمان خاصة في موضوع الكدية لأنه كتب الحكايات المتعددة في شأن المتسولين والشحاذين وقد أورد أسماء المشهورين منهم في كتابه "البخلاء". (ضيف، ١٩٥٦م: ١٧٤)
٥. طريقة السائلين في اكتساب الرزق: كان بديع الزمان متأثراً بطريقة السائلين لأنه في عصره شاع التكدي باستخدام الألفاظ الفخمة والعبارات المسجوعة. بعبارة أخرى إنه كان متأثراً بواقع الحياة العامة لأنه في القرن الرابع كان الكثير من الناس يعيشون في الفقر والفاقة فالمقامات من جهة ثمرة تيار في الأدب العربي وهو تيار الأدب الحرمان والتسول وكان أدب التسول صورة طائفة من الناس عاشوا تحت الظلم والمحن فلجاؤوا إلى أنواع الحيل لكسب الرزق (المقدسي، ١٩٧٩: ٢٠٧)

منهم فريق بني ساسان. إنهم قاموا بالاستجداء والكدية بواسطة قص الروايات وبكلامهم المنظوم والمسجع. فكما نرى بطل المقامات ينهج منهجهم هذا في الاستجداء. على سبيل المثال نراه في المقامة الساسانية يعمل هكذا. أي البطل في هذه المقامة يكتسب من الناس نقودا بكلامه المسجع وبقصه القصص. (الهمذاني، ٢٠٠٢م: ١٠٨-١١٢)

٦. القصاصون: إنهم كانوا يقصون القصص للناس على المنابر أو في الحفلات التي تشكل في المساجد والمعابر وفي النهاية كانوا يسألون الناس أجرا. (ابراهيم حريري، دون تا: ٢٦-٢٧)

٧. النقالى: هناك نوع من رواية القصص يعرف بـ "النقالى". والنقالى رواية واقعة أو حادثة نظما أو نثرا والراوي يروي حكايته بالحركات الخاصة المناسبة لها. النقالى وجد قبل الإسلام وراج راجا شديدا بعده. (ملك پور، ١٣٣٦، ٢١-٢٠) فالذين قاموا بالنقالى كانوا في الأغلب يحكون قصصا من الشاهنامة لأبي القاسم الفردوسي وكان النقالى وخاصة رواية الشاهنامة من المراسيم الرائعة في بلاط الملوك والوزراء. وهم أعطوا القصاصين صلات. وكان القصاصون يقصون باللغة العامية القصص المختلفة للناس واكتسبوا لنقل روايتهم الصلة منهم. (افشاري، ١٣٧٧ش: ٢١-٢٢) وكان بني ساسان قد احترفوا في رواية القصص وخاصة في رواية قصص الشهنامة وكذلك في "النقالى".

نجد هذه الطريقة في رواية القصص (أي النقالى) في المقامات كلها. فمثلا نرى أبي الفتح الاسكندري، بطل المقامات البديعية، في المقامة السجستانية أنه جمع الناس حوله في السوق وقام بإلقاء الخطابة لهم وأخذ منهم أجرا في النهاية على طريقة القصاصين. (الهمذاني، ٢٠٠٢م: ٢٢-٢٨)

٨. كان بديع الزمان من حيث النقد الاجتماعي متأثرا بالأدباء المناهضين وكذلك من الناقدین من مثل "أحنف العكبري" و"أبي دلف" وكانا متأثرين بالظروف المتأزمة لعصرهما.

ويصور بديع الزمان الظروف والأوضاع في القرن الرابع وحدث حوادث كتابه في الأماكن والمدن الإسلامية والإيرانية (الصحنة والمكان في مقاماته). فهو يصف معاصريه وخلقياتهم بالواقعية. ويصف في مقاماته بعض الأطعمة والألبسة الموجودة في عصره ويصف محافل

الناس ومجالس شربهم وخلاعتهم وطرفهم. فبعض الدارسين يرون أن المقامات كتبت لهدف تعليمي وأدبي أي نظرا إلى رأيهم كان الهدف من المقامات تعليم اللغات والتراكيب المعقدة للمتعلمين. ولكن ما حصل من المقامات ومطالته أن الهدف من كتابة المقامات إضافة إلى البعدين التعليمي والفني منه هو بيان النقد الاجتماعي. فالمقامات البديعية كالمسرحية التي تصور الحياة الاجتماعية للقرن الرابع واضحا. فبديع الزمان أورد في مقاماته كل المفاسد الموجودة والشائعة بين الناس وأورد حتى المصطلحات والشتمات الشائعة بين القراصنة والمنتشدين في ذلك العصر. (الهمذاني، ٢٠٠٢م: ١٨١) ففن المقامة يعالج المجتمع في حلة من اللفظ، فالقارئ يعجبه صياغتها، وحسن سبكها، وجمال سجعها فيشتغل بها، ولا يلتفت بما تهدف إليه المقامة إلا بعد اكتمالها وبعد التفكير العميق في مضمونها وفكرتها.

بطل المقامات البديعية

بطل المقامات البديعية هو أبو الفتح الاسكندري نرى فيه «الجشع والتحيل المقرونين بذكاء واختبار واسع، وله روح الدعابة والطرف» (المقدسي، ١٩٨٩: ٣٧٧). في الأغلب يظهر كأديب متجول أخذ من الناس مالا بكلامه المسجع وتلاعبه بالألفاظ الفخمة وهذه الصورة تظهر لنا حالة بعض الأدباء آنذاك فإنهم لترقية أمورهم كانوا يظهرين كل يوم على حالة مختلفة عن سائر حالاتهم. وهو شخص مخادع يميل إلى المحتالين والأذكيااء البلغاء، الذين يستخدمون الحيلة والفتنة والدهاء في استلاب الناس أموالهم، لذا فإن أبرز ميزات البطل هو أن يكون خفي المكر، شديد العارضة، حاد الذهن قوي الملاحظة في حل الألغاز وكشف الشبهات، مرح طروب في اجتياز العقبات وسلوك المصائب. واسع المعرفة في صنوف الأدب وغريب اللغة وأحكام الدين وصنوف العلم، فهو شاعر وخطيب وواعظ معا، يتظاهر بالإيمان والزهد ويضمّر الفسق والمجون، ويتصنع الجد ويخفي في طياته الهزل، ويظهر غالباً كشخص مسكين متهالك بائس، إلا أنه في واقع الأمر طالب المنفعة. (ضيف، ١٩٥٦م: ١٧٥) فبعبارة أخرى بطل المقامات لديه قدرة على التلون، والخداع في سبيل الحصول على المال فهو يضطر أن يلجأ إلى ضروب الحيل ويعلم الطرق المختلفة والمتنوعة للوصول إلى قلوب الناس.

فكما ذكرنا أنفاً أنه شاعت الاستجداء في القرن الرابع للهجرة، وقد ظهر آنذاك فريق باسم الساسانية وإنهم كانوا الشعراء والقصاصين الذين يكسبون لقمة عيشهم في الأغلب من طريق الاستجداء. هذا وبالنظر إلى خصائصهم الأخرى يمكن لنا أن نقول إن لهم أثر

كبير ودور هام في ظهور المقامات. وهذا موضوع ممكن اثباته إذا نظرنا إلى بطل المقامات البديعية ودرسناه وحيله ثم قمنا بمقايضة حيله والحيل التي يستخدمها بني ساسان وطريقتهم الخاصة في اكتساب المال والصلة لوجدنا المشابهات الكثيرة بين أبي الفتح الاسكندري وهذا الفريق. (أبو دلف، دون تا: ١٢؛ الثعالبي، ١٩٧٤: ج ١٧٦/٣)

القضية الهامة التي نواجهها عند دراسة بعض الأخبار من حياة بديع الزمان اختلافه إلى بلاط الصاحب بن عباد. وقد اهتم به الصاحب كثيراً وكان الصاحب من الأدباء البارزين ومن محبي العلم والأدب في عصره فلكثرة حبه للأدب قد جمع حوله كثيراً من الأدباء. وقد تعرف بديع الزمان على الكثير من الأدباء في بلاط الصاحب منهم أبو دلف الخزرجي. (غنيمي هلال، ١٩٩٩م: ٢٢١)

أثر أبي دلف في ظهور المقامات

كما قلنا كان بديع الزمان من معاصري أبي دلف وكان كلاهما من الذين اختلفوا إلى بلاط الصاحب ففي الحقيقة كان الصاحب حلقة اتصال أبي دلف وبديع الزمان. فكان بديع الزمان يعرف من القريب أبا دلف ويكرمه ويدعوه إلى مجلسه ويحسن إليه ويحفظ أشعاره فليس من المستبعد أن بديع الزمان كالصاحب بن عباد كان يعرف على فريق الساسانية بواسطة أبي دلف أو لعله هو كالصاحب رغب في تعلم لغتهم الرمزية. فالعلاقة بين أبي دلف وبين بديع الزمان مستحكمة إلى حد يروي الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر" بعضاً من أشعار أبي دلف على لسان بديع الزمان. (الثعالبي، ١٩٧٤م: ج ٣٥٢/٣) فيكفي بنا أن ننظر إلى بعض أبيات أبي دلف التي وردت في المقامات البديعية على لسان بطل المقامات فالبيت التالي أنشده أبو دلف وأجراه بديع الزمان على لسان بطله:

ويحَاك هذا الزمانُ زورٌ فَلا يغرُنْكَ الغُـرورُ

(الهمذاني، ٢٠٠٢م: ٨٧)

فعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نقول أن بديع الزمان تأثر في إبداع مقاماته من نموذج حقيقي وهو أبو دلف وليس بعيداً من التصور أنه كان بطل المقامات البديعية أبا دلف ولكن غير الكاتب اسمه بأبي الفتح الاسكندري لصيانة عرضه أو لأي سبب آخر. فلهذا يمكن لنا أن نجرأ بأن أبا الفتح الاسكندري ممثل ومصور شخصية أبي دلف. فلإثبات هذا الأمر نقوم بالمقارنة بين شخصية أبي دلف وأبعادها المختلفة وبين شخصية بطل المقامات:

١. قص الحكايات والقصص: كان بطل المقامات البديعة يسافر على الدوام واكتسب رزقه من طريق قص الحكايات في المعابر وأمام المساجد أو من طريق الكدية وكذلك كان أبو دلف سياحا وجوالا يضرب الآفاق وكان يكسب لقمة عيشه من طريق قص الحكايات والقصص.

٢. كان كلاهما شاعران ظريفان: كان أبو الفتح شاعرا بارعا وأديبا ماهرا وظريفا كما كان أبو دلف أديبا لغويا، وشاعرا.

٣. استخدام الحيل واللطائف النادرة: كما قلنا آنفا كان أبو دلف اديبا يكسب لقمة عيشه بواسطة أنواع الحيل ويتلون في كل موقف بلون خاص كي يستطيع أن يكتسب وقد يشير نفسه إلى هذا التلون في بعض أشعاره، كما قال في القصيدة الساسانية:

ومنَّما النَّائحُ الميكي ومنَّما المنشد المطري

(الثعالبي، ١٩٧٤م: ج٣/٣٦٢)

فهو في البيت فوق يصف نفسه - بعد أن يعد نفسه من بني ساسان - ويصف تلونه وحالاته المختلفة التي كانت كل لحظة بشكل على أساس مقتضى الزمان والمكان.

وكذلك فعل بطل المقامات. فتارة وعظ الناس وتارة أخرى ظهر في مجلس كأديب وشاعر وتارة يأخذ أموالا من الناس بأنواع الحيل. (الهمذاني، ٢٠٠٢: ٦٢-٦٦)

٤. كان كلاهما يقفان على أوضاع عصرهما المتأزمة. وبما كان كلاهما جوالين ويسافران دائما من بلد إلى آخر وكانا عالمين، فإنهما كانا يقفان على أوضاع دهرهم وما فيه من المصائب والمشاكل.

٥. قد نسب بعض أشعار أبي دلف إلى أبي الفتح وأجريت على لسانه كأن بطل المقامات هو نفس أبي دلف. وكأن بديع الزمان أراد بهذا الطريق الخفي وصلنا الى مصدر إلهامه في خلق بطله. فالبيتان التاليان لأبي دلف ولكن أنشده البطل:

ويحك هذا الزمان زورٌ فلا يغرُّكَ الغرورُ
لا تلزم حاله ولكن دُرُّ باليالي كما تدورُ

(الهمذاني، ٢٠٠٢م: ٨٧)

فالبيتان المذكورتان لأبي دلف ولكن أجراه البديع على لسان بطله أبي الفتح الاسكندري كأنه يريد بالإيحاء والكناية يقول لنا إن بطله في الواقع أبو دلف ولكنه لم يصرح بذلك. وكذلك نرى في البيتين أن الشاعر نسب الزور إلى الزمان وهذا يعني أنه انتقد الدهر وعبر

عن مشاكل الدهر في زمانه، ثم جعل أمامنا طريقا وهو التلون والتغير مع حالات الدهر المختلفة كأنه هو الحل الفريد والمفرّ من مخالب المصائب.

٦. وكلاهما كانا منتقدين ونرى في أقوالهما وآثارهما نوعا من النقد الاجتماعي. فأشعار أبي دلف تعكس الأوضاع المتأزمة لعصره. فمثلا نراه ينصح الناس على التلون والتغيير دائما مع حوادث الدهر أو ينصحهم على أن يكونوا متظاهرين:

لا تَلْزِمَ حَالَةً وَلَكِنَّ دُرَّ بِاللَّيَالِي كَمَا تَدُورُ

(الثعالبي، ١٩٧٤م: ج٣/٣٥٤)

في الحقيقة أوضاع دهره المتأزمة بدله إلى أديب منتقد وناقد مناهض فنرى مثل هذا النقد في المقامات كلها. فعلى سبيل المثال أبو الفتح الاسكندري في المقامة الأصفهانية نموذج بارز للكسب الحرام في ذلك العصر فهو يدعي في هذه المقامة أنه رأى في المنام النبي ﷺ وتعلم منه دعاء ويسأل أبو الفتح بواسطة هذه الدعاء أجرا من الناس. فهو في هذه المقامة ممثّل طبقة يخدعون الناس باسم الدين والشريعة وبهذه الحيلة يحصلون على أموال كثيرة. (الهمداني، ٢٠٠٢: ٦٢-٦٦)

٧. العلاقة بيني ساسان: كما ذكرنا إن أبا دلف عرف نفسه كأحد أعضاء بني ساسان وأتقن لغتهم وكذلك بديع الزمان جعل اسم إحدى مقاماته المقامة الساسانية التي يظهر فيها البطل كرئيس فرقة من الساسانية. وهذا كله دال على أن بديع الزمان قد هدينا إلى بني ساسان ونهنا إلى نموذج في خلق بطله ولكنه لم يذكر اسم أبي دلف لأسباب ما.

٨. التلون والنفاق: كان بطل يتلون المقامات على الدوام ونراه إنه يعترف بنفاقه وبأحواله المتلونة في المقامة القزوينية ويقول:

أَنَا حَالِي مِنَ الزَّمَا نِ كَحَالِي مَعَ النَّسَبِ
نَسَبِي فِي يَدِ الزَّمَا نِ إِذَا سَامَهُ انْقَابِ
... أَنَا أَمْسِي مِنَ التُّيْطِ وَأَضْحِي مِنَ الْعَرَبِ

(الهمداني، ٢٠٠٢م: ٢٢٠)

وكذلك نجد أبا دلف اعترف بنفاقه وتلونه حسب الظروف ومختلف الأوضاع كما مر بنا آنفا.

٩. الجواله والسياحة: إن أبا دلف كان سياحا ويصف في رسالته الأولى والثانية شرحا من أسفاره ومشاهداته في إيران وغيرها من البلدان الإسلامية ويشرح عادات وسلوك أهاليها (انظر: أبو دلف، دون تا) وله بعض الأشعار التي يشير فيها إلى كثرة أسفاره، منها:

ألا إنني حلبتُ الدهم — رَمَن شَطْرٍ إلى شَطْرٍ
 وجُبْتُ الأَرْضَ حَتَّى صِر — تُفِي التَّطَوَّافِ كَالخَضِرِ
 (الثعالبي، ١٩٧٤: ج٣/٣٥٣)

فأبو دلف في البيتين المذكورتين يشير إلى أسفاره ويشبه نفسه بالخضر الذي يجوب الأرض ولا يبقى في مكان واحد. وكذلك بطل المقامات كان جوالاً يضرب الآفاق ولا يستقر في مكان واحد إلا لعدة أيام معدودات، ونراه في المقامات يصور بشكل واقعي أخلاق وسلوك الناس في عصره. فإذا يهمن المقامات من الناحية الاجتماعية والتاريخية إضافة على أهميتها الأدبية والغوية لأنها حفظت لنا الكثير من العادات والرسوم للبلدان الإسلامية والمجتمع آنذاك.

والقضية الهامة التي علينا أن نلفت النظر إليها هي أن أبا دلف أخذ تكاليف أسفاره من الصاحب وعلمه معلومات ولغة بني ساسان الخاصة وكان بديع الزمان متأثراً على حد ما بالصاحب وعرف أبا دلف من القريب. وفي الحقيقة أسفار أبي دلف وتقريراته منها التي كان يقدمها إلى الصاحب وكذلك أشعاره النقدية من جهة وعلاقته ببني ساسان وإتقان لغتهم وعلاقته الوثيقة بالصاحب بن عباد من جهة أخرى يوفر لبديع الزمان كل ما يحتاج إليه لخلق أثره الفني الممتاز. ويؤيد هذا أن بطل المقامات البديعية كان أديباً، وفاضلاً، وسياحاً متأثراً من الأوضاع المتأزمة لعصره واكتسب لقمة عيشه بالحيل والكديّة. أي نرى فيه كل الخصائص التي نجدها في أبي دلف. (غنيمي هلال، ١٩٩٩م: ٢٢٤-٢٢٦)

١٠. طريقة إنشاد الأشعار ومضامينها الشعرية المشتركة: كان طريقة أبي الفتح في إنشاد الأشعار إلى حد ما تشبه أبا دلف وطريقة إنشاده الأشعار حتى أنه جاء بأبيات من أبي دلف في مقاماته على لسان بطله. وكذلك عندما نقايس الأشعار التي جاءت في نهاية كل المقامة بأشعار أبي دلف، نشاهد هذه المشابهة بينهما من حيث الألفاظ والموضوع والمضمون. فعلى سبيل المثال قمنا بمقارنة بيتين من أشعار أبي دلف وأبياتنا من أشعار بديع الزمان التي أجراها على لسان أبي الفتح الاسكندري:

فقال أبو دلف وهو وصف سياحته:

إذا ضاقَ بنا قَطْرٌ — نَزَلَ عَنهُ إلى قَطْرٍ
 فَتَصَطَّافٌ عَلَى السَّالِحِ — وَنَشَّتُو بِلَدِّ التَّمْرِ

(الثعالبي، ١٩٧٤م: ج٣/٣٥٥)

وقال بديع الزمان وهو وصف سياحة بطل مقاماته:

بأمد مرةً وبرأس عينٍ وأحياناً بميماً فارقيناً
ليلةً بالشَّامِ ثَمَّتْ بالأهوازِ رحلي وليلاً بالعراقِ
(الهمذاني، ٢٠٠٢م: ٥٥)

وكما نشاهد في الأبيات المذكورة، كلا الشاعرين - أبي دلف وأبي الفتح - يشيران إلى أسفارهم وسيرهم بين البلدان. فهما تارة يكونان ببلد وتارة ببلد آخر.

يمكن لنا أن نقول إن بديع باستخدامه قناع راويته عيسى بن الهشام وعلى لسانه وكذلك بواسطة بطله الذي أخذ شخصيته من شخصية أبي دلف، أديب عاصره، أدى كلماته، وانتقاده، وكل ما أراد أن يقول.

يمكن لنا أن نقول علاقة أبي دلف بمجتمعه سببت النمو والرقي لروحه الانتقادي والأدبي وحوله إلى أحد النقاد البارزين لعصره حيث أن أديبا بارعا كبديع الزمان ألهم من شخصيته ويبدع مقاماته أخذاً منه نموذجاً لأنه كانت بينهما مصادقة ولعله كانت إحدى الأسباب لإخفاق الحريري الذي قام بعد الهمذاني بكتابة المقامات مقلداً منه، في النقد الاجتماعي هو هذا الأمر. أي أن الحريري لم يكن لديه نموذج حي حتى يلهم منه فأدت مقاماته في الأكثر إلى التصنع والتعقيد اللفظي. (رضا، ١٣٧٢ش: ج٤٦٠/٥)

النتائج

فبعد كتابة هذه المقالة وصلنا إلى عدة النتائج نشرحها في السطور التالية:

١. كان بلاط الصاحب بن عباد محل اجتماع العلماء والأدباء فكان أبو دلف يختلف ببلاطه ويمدحه ويعلمه ويحفظ له كتبه. وكذلك كان بديع الزمان من الشعراء الذين كانوا يختلفون إلى بلاطه، فالبديع كان يعرف أبا دلف من قريب، فكان الصاحب حلقة الاتصال بين الهمذاني وأبي دلف وكان بينهما علاقة المصادقة. وعلاقة بينهما تتسع في ما بعد حيث أن الهمذاني لإبداع مقاماته وبطله يتأثر من أبي دلف وشخصيته.
٢. كان أبو دلف عضو فرقة بني ساسان وكان يعلم لغتهم الخاصة لصاحب بن عباد. وبنو ساسان كانوا مشهورين بالإستجداء والكدية، ولكنهم من الأدباء والشعراء وكان لكليهما أثر هام في ظهور المقامات. حيث انتخب بديع الزمان أبا دلف كنموذج لخلق بطله، وجعل طريقة بني ساسان في الاكتساب كنموذج لطريقة بطله وكمصدر كان يلهم منهم في قص حكاياته ومقاماته.

٣. هناك تشابه كثير بين بطل المقامات البديعية وبين أبي دلف. فوجوه التشابه بينهما هي: كلاهما يسافران دائماً، كلاهما كانا أديبان ظريفان عالمان، كلاهما كانا يحكيان القصص أمام أبواب المساجد وبين الأسواق وبين الناس، مضامين أشعارهما كانت تشابه بعضها ببعض، قد نقل بديع الزمان بعض أشعار أبي دلف في مقاماته ونسبه إلى بطله وأجراه على لسانه، كلاهما كانا يستخدمون الحيل والنوادر، كلاهما كانا يقفان على أوضاع دهرهما المتأزمة، وكلاهما كانا يعترفان بتلونهم ونفاقهم. ولا ريب في أن هذا التشابه ناجم عن علاقة بديع الزمان وأبي دلف.
٤. جاء بديع الزمان في مقاماته ببعض أشعار أبي دلف على لسان بطله وتارة جاء بمضامين أشعار أبي دلف في أشعار أجراها على لسان بطله، وهذا الأمر يدل على أنه كان متأثراً بأبي دلف.
٥. سعى بديع الزمان في اختفاء اسم أبي دلف بأسباب ما. فيمكن أن إختفى اسمه للحفاظ على عرض أبي دلف أو للخوف منه أو من الصاحب.

المصادر والمراجع

١. إبراهيمي حريري، فارس (١٣٦٣ش). مقامه نويسي در ادب فارسي وتأثير مقامات عربي در آن. طهران: مطبعة جامعة طهران.
٢. ابن النديم (دون تا). الفهرست. طهران: مطبعة جامعة طهران.
٣. أبو دلف (دون تا). الرسالة الأولى والثانية. تحقيق بطرس بولفاكوف وأنس خالدوف، ترجمة محمد منير مرسي، القاهرة: عالم الكتاب.
٤. افشاري، مهران؛ مدايني، مهدي (١٣٧٧ش). هفت لشكر (طومار جامع نقالان) از كيومرث تا بهمن. طهران.
٥. الثعالبي، عبد الملك بن محمد (١٩٧٤م). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة: مطبعة الحجازي.
٦. الحموي، ياقوت (١٩٨٨م). معجم الأديباء. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٧. الدقاق، عمر (٢٠٠٤م). أعلام النثر الفني في العصر العباسي. دمشق: دار الرفاعة.
٨. رضا، عنايت الله (١٣٧٢ش). دائرة المعارف الإسلامية. طهران.
٩. ضيف، شوقي (١٩٥٦م). الفن ومذاهبه في النثر العربي. ط٢، بيروت: مكتبة الأندلس.
١٠. عباس، حسن (دون تا). نشأة المقامة في الأدب العربي. القاهرة: دار المعارف.
١١. غنيمي هلال، محمد (١٩٩٩م). الأدب المقارن. ط٢، بيروت: دار العودة.
١٢. قزويني، زكريا بن محمد (١٩٨٧م). آثار البلاد. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
١٣. المقدسي، أنيس (١٩٧١م). تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي. بيروت: دار العلم للملايين.
١٤. ملك پور، جمشيد (١٣٣٦ش). ادبيات نمايشي در ايران. طهران: نشر طوس.
١٥. ميرصادقي، جمال؛ ميرصادقي، ميمنت (١٣٧٦ش). واژه نامه هنر داستان نويسي. ط٣، طهران: نشر علمي.
١٦. الهمذاني، بديع الزمان (٢٠٠٢م). المقامات. بيروت: دار الكتب العربية.